

الفصل الأول

الهبوط على الرمال الحمراء

السفينة لمست سطح المريخ برعشة خفيفة، ثم استقرت.

هاشم أطفأ محركات الهبوط ونظر عبر النافذة الكبيرة. السماء كانت أرجوانية داكنة، والشمس تبدو أصغر وأكثر شحوبًا مما هي عليه من الأرض، كقرص باهت معلق في فراغ لا يرحم. تحتهم امتدت الرمال الحمراء-الوردية إلى الأفق، تتخللها قوّهات براكين قديمة وكثبان ناعمة شكلتها رياح ضعيفة على مدى ملايين السنين.

ياسر كان يراجع القراءات على الشاشة الجانبية. قال بصوت هادئ داخل الخوذة:

— الضغط الجوي منخفض جدًا كما توقعنا. درجة الحرارة خارجًا خمسة وستون تحت الصفر. البدلات جاهزة.

هاشم أومأ. كان أكبر سنًا بقليل، شعره أسود قصير بدأ يتسلل إليه بعض الشيب عند الصدغين، وعيناه تحملان تركيزًا هادئًا معتادًا على المهمات الطويلة. ياسر أصغر، أكثر حماسة، وابتسم حتى في اللحظات التي لا تستدعي الابتسام.

خرجوا من السفينة بعد ساعة. الرياح الخفيفة حركت ذرات الغبار الأحمر حول أقدامهما. كل خطوة كانت تترك أثرًا واضحًا في الرمال الناعمة، أثرًا يعرفان أنه قد يبقى هناك قرونًا إذا لم تمحُ العاصفة التالية.

المهمة كانت واضحة: استكشاف القطاع الشمالي من سهل «إليسوم»، جمع عينات من التربة والصخور، والبحث عن أي مؤشرات غير عادية على نشاط جيولوجي أو... أي شيء آخر. مركز المتابعة على الأرض كان حذرًا في تعليماته. «لا تتجولا بعيدًا عن السفينة في اليوم الأول. راقبوا القراءات كل عشر دقائق».

هاشم توقف على كتيب صغير ورفع رأسه نحو الأفق. الصمت هنا كان مختلفًا عن أي صمت عرفه على الأرض. لا حشرات، لا طيور، لا حتى حفيف أوراق. فقط صوت تنفسه داخل الخوذة، وصوت خطوات ياسر خلفه.

— هل تشعر بهذا؟ — سأل ياسر فجأة.

— بماذا؟

— كأن المكان... يراقبنا. أعرف أن هذا سخيّف. لكن الرمال هذه، والسماء هذه... تبدو أقدم من أن تكون فارغة تمامًا.

هاشم لم يسخر. هو أيضًا كان يشعر بشيء مشابه منذ لحظة الهبوط. ليس خوفًا، بل إحساسًا غامضًا بأن هذه الصحراء الحمراء لم تكن دائمًا بهذا الصمت.

أشار إلى الأمام حيث كانت الكثبان تتخذ أشكالًا أكثر انتظامًا في المنطقة البعيدة.

— غدًا نبدأ المسح في ذلك الاتجاه. اليوم نكتفي بعينات قريبة ونعود قبل أن ينخفض الضوء أكثر.

ياسر أومًا، لكن عينيه بقيتا موجهتين نحو الأفق الأرجواني. الشمس كانت تميل ببطء، تلقي ظلالًا طويلة بنفسجية على الرمال.

في مكان ما تحت تلك الرمال، أو داخل أحد الكثبان التي تبدو عادية، كان شيء قديم ينتظر منذ زمن طويل... شيئًا لم يعد أحد على قيد الحياة ليتذكره.

****الفصل الثاني****

****البئر****

في اليوم الثاني خرجا مبكرًا.

الشمس الأرجوانية كانت لا تزال منخفضة، تلقي ضوءًا مائلًا يجعل الكثبان تبدو كأمواج متجمدة من دم قديم. هاشم وياسر تقدما بالمرحلة الزاحفة ببطء، يتوقفان كل بضعة مئات من الأمتار لأخذ قراءات وأSAMPLES. الأجهزة لم تسجل شيئًا غير عادي... حتى ظهرا فجأة أمامهما.

البئر.

كان يبرز من الرمال كحافة دائرية مرتفعة حوالي متر ونصف، منتظمة بشكل يشير الارتياح. الأحجار التي بُني منها لم تكن كأى صخور مريخية رأياها من قبل. كانت شفافة تقريبًا، تميل إلى الأزرق الفاتح، وتلمع حتى في الضوء الشاحب كأنها تحتفظ بضوء داخلي خاص بها.

ياسر أوقف المركبة قبل أن يصل إليها مباشرة. نزل ومشى بخطوات بطيئة حتى لمس الحافة بيده المغطاة بالقفاز.

— هذا... ليس طبيعيًا.

هاشم انضم إليه. راح يدور حول البئر ببطء. القطر كان حوالي ثلاثة أمتار، والعمق يبدو سحيقًا؛ الظلام داخله كثيف ولا يعكس أي ضوء. وعلى سطح الأحجار الزرقاء كانت هناك خطوط محفورة بعمق ودقة: رموز أو حروف لم يسبق لهما رؤيتها، تتكرر في أنماط منتظمة حول الحافة كلها.

قال هاشم وهو يلتقط صورًا متعددة:

— الشكل الدائري المثالي، والأحجار المتطابقة، والكتابات... هذا ليس تكوينًا جيولوجيًا.

ياسر كان يحدق في الرموز.

— هل تعتقد أنها لغة؟ أم مجرد زخرفة؟

— أيا كانت، فهي صنع ذكاء. ذكاء عرف كيف يقطع هذه المادة الصلبة ويرصّها بهذا الإحكام. الماس أو ما يشبه الماس... على المريخ.

صمتا لحظة. الرياح الضعيفة حركت ذرات الغبار حول الحافة، لكنها لم تترك أثرًا على الأحجار نفسها.

هاشم ضغط على زر الاتصال في خوذته.

— مركز المتابعة، هنا هاشم. اكتشفنا هيكلًا اصطناعيًا واضحًا. بئر دائري مبني من مادة تشبه الماس، عليها كتابات غير معروفة. نطلب تعليمات قبل أي تعامل مباشر.

مرّت دقائق قبل أن يأتي الرد مشوشًا بسبب المسافة:

— تم الاستلام. لا تلمس أي شيء إضافي. خذ عينات صور وقراءات فقط، وانتظرا التعليمات التالية. كررا... لا تلمس الهيكل مباشرة أكثر من اللازم.

ياسر نظر إلى البئر ثم إلى هاشم.

— ينتظرون. ونحن أيضًا.

لكن كليهما كان يعرف أن الانتظار هنا، أمام هذا الشيء الذي يبدو كأنه ينظر إليهما من أعماق الزمن، سيكون أصعب من أي انتظار سابق على هذا الكوكب الميت.

****الفصل الثالث****

****المومياء****

التعليمات جاءت في اليوم الثالث: «اسمح لكم بالحفر حول الهيكل بحذر شديد لجمع عينات من التربة والأحجار. لا تدخل البئر نفسه».

هاشم وياسر بدأ العمل مع أول ضوء. استخدموا أدوات الحفر الإلكترونية الخفيفة، يزيلان الرمال الحمراء طبقة بعد طبقة حول الحافة الخارجية للبئر. في البداية لم يجدا شيئًا غير الحصى والغبار الناعم. ثم، على عمق متر تقريبًا، اصطدمت الأداة بشيء صلب مختلف.

أزبلا الرمال بسرعة أكبر. ظهر أولًا ما يشبه طرف قماش ممزق متكلس، ثم جزء من طرف سفلي طويل جدًا. بعد ساعة من العمل الحذر، كان الجسد كاملًا أمامهما.

مومياء.

طولها يقترب من ثلاثة أمتار. الجمجمة هائلة الحجم مقارنة بالجسم، مفلطحة قليلاً من الخلف، والوجه — رغم التآكل — يحتفظ بملامح مألوفة وغريبة في آن واحد: تجوفا عيين واسعين، أنف مسطح، وفك طويل. الملابس التي كانت تغطي الجسد ممزقة ومتآكلة، لكنها ما زالت تحتفظ بقطع من نسيج غريب لامع في بعض المواضع. الجسد نفسه خفيف بشكل مذهل، كأنه مصنوع من مادة أقل كثافة من العظام البشرية.

ياسر همس وهو يلتقط الصور:

— يا إلهي... هذا ليس إنسانًا. لكنه... قريب.

هاشم كان يفحص الجمجمة بحذر عبر القفاز.

— الحجم الكبير للدماغ واضح. والعينان... انظري إلى تجويفيهما. واسعان ومستديران أكثر من عيوننا.

صمت لحظة ثم أضاف:

— التطور المتوازي. تتذكر؟ عين الأخطبوط. تشبه عين الإنسان في تركيبها الأساسي رغم أن الأخطبوط ليس من الثدييات ولا من أسلافنا. الطبيعة تصل أحيانًا إلى حلول متشابهة بطرق مختلفة تمامًا.

ياسر أومأ ببطء.

— إذن هم وصلوا إلى الذكاء أيضًا... بطريقتهم. ثم انقرضوا.

رفعا المومياء بحذر شديد على متن المركبة الزاحفة. كانت خفيفة بشكل غير متوقع، كأن الزمن قد امتص معظم وزنها. قررا تغطيتها فورًا بطبقة بلاستيكية واقية قبل نقلها إلى السفينة، خوفًا من أي تفاعل مع الأكسجين المتسرب من بدلاتهما أو من تغيرات الضغط.

بينما كانا يشدان الغطاء البلاستيكي حول الجسد الطويل، نظر هاشم إلى البئر مرة أخيرة. الأحجار الزرقاء كانت تلمع في الضوء الشاحب كأنها راضية.

قال بصوت منخفض:

— دفنوه بجانب البئر أو داخله. لماذا؟ وما الذي كتبوه على الأحجار؟

ياسر لم يجب. هو أيضًا كان يشعر أن المومياء ليست نهاية اللغز... بل بدايته فقط.

****الفصل الرابع****

****التفاعل****

بعد أن أدخلوا المومياء إلى غرفة العينات في السفينة، أغلقوا الباب المحكم وخلعوا خوذتيهما. الهواء المعاد تدويره كان باردًا ونظيفًا، لكن رائحة غريبة بدأت تتسلل فورًا.

حادّة، كيميائية، تشبه خليطًا من المعادن المحروقة وشيء عضوي قديم. ياسر ارتد خطوة إلى الوراء.

— ما هذه الرائحة؟

هاشم اقترب من الطاولة التي مددت عليها المومياء تحت الغطاء البلاستيكي الشفاف. البخار كان يتصاعد ببطء من حول الرأس والجذع، رقيقًا أبيض مزرّقًا، يتكاثف ثم يختفي في فتحات التهوية. الغطاء البلاستيكي بدأ ينتفخ قليلًا في مواضع، كأن شيئًا بداخله يتنفس.

— تفاعل كيميائي — قال هاشم محاولًا الحفاظ على هدوئه. — ربما مع بقايا الأكسجين التي تسربت من بدلاتنا، أو مع الرطوبة. المومياء كانت معزولة في بيئة المريخ الجافة لملايين السنين... الآن تعرضت لظروف مختلفة.

ياسر شغل أجهزة التحليل. القراءات ظهرت على الشاشة بسرعة: مركبات عضوية معقدة غير معروفة، آثار لعناصر نادرة، ونشاط كهربائي ضعيف جدًا داخل الجمجمة الكبيرة.

— هناك نبضات — همس ياسر. — ضعيفة وغير منتظمة، لكنها موجودة. كأن شيئًا ما... لا يزال يعمل.

في اللحظة نفسها أصدرت أجهزة السفينة إشارة تحذيرية منخفضة. شاشة الملاحه ومضت، ثم عادت. رادار القرب سجل هدفًا لحظيًا ثم اختفى. الإضاءة في الممر الخارجي خفت لثانية كاملة قبل أن تعود.

هاشم رفع رأسه بسرعة.

— هل هذا من المومياة؟

— لا أعرف. لكن التوقيت متزامن.

اقتربا من الجسد مرة أخرى. البخار ازداد كثافة حول تجويفي العينين الواسعين. للحظة بدا وكأن الظلال داخل التجويفين قد تحركت، كأنها تتبع ضوء الغرفة.

ياسر ابتلع ريقه.

— هاشم... أشعر وكأن شيئًا يستيقظ. ليس الجسد نفسه، بل شيء مرتبط به. أو بالبئر.

هاشم لم يرد فورًا. كان يراقب الشاشات التي بدأت تعرض تداخلات خفيفة في الإشارات الراديوية، كهمسات بعيدة جدًا وغير مفهومة. في خلفية الضوضاء الإلكترونية، كان هناك نمط يتكرر... يشبه إلى حد بعيد الإيقاع الذي رآياه محفورًا على أحجار البئر.

أغلق هاشم الغطاء البلاستيكي بإحكام أكبر، ثم نظر إلى ياسر.

— نغلق غرفة العينات بالكامل. نضع المومياء تحت عزل مزدوج. ونبغ المركز فورًا.

لكن بينما كانا يتحركان لتنفيذ ذلك، أحس كلاهما بالشيء نفسه في الوقت نفسه:
أن الصمت داخل السفينة لم يعد صمًا فارغًا.
وأن شيئًا قديمًا جدًّا... كان قد بدأ يفتح عينيه.

****الفصل الخامس****

****البوابة****

لم يستغرق الأمر أكثر من ساعة.

بعد أن عزلا المومياء داخل غرفة العينات المزدوجة، قررا العودة إلى البئر لأخذ قراءات إضافية من الأحجار نفسها. حملا معهما جهاز تحليل طيفي محمول وعينة صغيرة من البخار الذي كان لا يزال يتصاعد ببطء داخل السفينة.

الرمال الحمراء كانت هادئة تحت أقدامهما. البئر ينتظر كما تركاه، أحجاره الزرقاء تلمع في الضوء الأرجواني الشاحب. هاشم ركع بجانب الحافة ووجه الجهاز نحو أحد الرموز المحفورة. ياسر وقف خلفه يراقب الشاشة.

القراءة الأولى كانت عادية. ثم تغيرت فجأة.

الجهاز أصدر صفيّرًا حادًا. الأرقام على الشاشة تداخلت، ثم ظهرت أنماط تتطابق تمامًا مع النبضات الضعيفة التي سجلها داخل جمجمة المومياء. في اللحظة نفسها، بدأت الأحجار الزرقاء حول البئر تتوهج من الداخل، ضوء أزرق باهت يزداد شدة تدريجيًا كأنه يستجيب للإشارة.

هاشم تراجع بسرعة.

— أوقف الجهاز!

ياسر حاول، لكن الضوء كان قد انتشر. الحافة الدائرية كلها صارت تضيء الآن، والرموز المحفورة تبدو كأنها تتحرك ببطء تحت السطح. من داخل البئر ارتفع عمود رفيع من البخار الأزرق نفسه الذي رأياه حول المومياء، وامتد نحو السماء المنخفضة.

ثم حدث الصدع.

الهواء أمامهما تموج كسطح ماء مضطرب. الرمال تحت أقدامهما فقدت صلابتها للحظة، والسفينة على البعد بدت وكأنها تنحني ثم تعود. صوت منخفض وعميق ملأ خوذتيهما، ليس من الخارج، بل من داخل رأسيهما مباشرة... إيقاع يشبه الكتابة على الأحجار، يكرر نفسه أسرع فأسرع.

هاشم صاح:

— ارجع إلى السفينة! الآن!

لكن الأرض جذبتهم.

الضوء الأزرق انفجر من البئر في موجة صامتة، غمرهما بالكامل. ياسر مد يده نحو هاشم، وهاشم أمسكها في اللحظة الأخيرة. العالم المريخي حولهما — الكتبان، السفينة، السماء الأرجوانية — تفتت إلى خطوط طويلة من اللون والظل، ثم انسحب بعيدًا كأنه يُبتلع في دوامة.

أحسا بسقوط لا نهائي، أو صعود، أو حركة في اتجاه لا يوجد له اسم. البرد اختفى، والحر اختفى، حتى الشعور بجسديهما داخل البدلتين تراجع. بقي فقط الضوء الأزرق، والإيقاع القديم، واليد التي تمسك بالأخرى بقوة.

ثم... توقف كل شيء.

عندما فتحا أعينهما من جديد، كانت الرمال تحت أقدامهما لا تزال حمراء...

لكن السماء فوقهما كانت مختلفة.

والشمس أكبر.

والأفق... لم يعد فارغًا.

انتهى الجزء الأول.

****الفصل السادس****

****السماء المختلفة****

أول ما شعرا به هو الهواء.

ليس الهواء المعاد تدويره داخل البدلة، بل هواء حقيقي يلامس الوجه بعد أن خلعا الخوذتين غريبًا. كان باردًا وجافًا، لكنه يحمل رائحة خافتة لشيء حي... تراب رطب، ونبات بعيد.

هاشم فتح عينيه أولاً. السماء فوقه لم تكن أرجوانية داكنة. كانت تميل إلى الأزرق الباهت المختلط بطبقة رقيقة من الغبار الوردي، والشمس أكبر وأدفأ مما عرفاه على مريخ زمنهما. تحت رأسيهما كانت الرمال لا تزال حمراء، لكنها أكثر تماسكًا، وتتخللها بقع خضراء رفيعة من نباتات منخفضة تشبه الطحالب أو الحشائش القاسية.

ياسر جلس ببطء، ينظر حوله بعيون واسعة.

— هاشم... انظر.

في الأفق البعيد، وراء سلسلة من الكثبان المنخفضة، كانت هناك خطوط مستقيمة داكنة. ليست كثبانًا. مبانٍ. أو جدران. أو شيء اصطناعي يمتد على استقامة واحدة ثم يختفي خلف تل.

هاشم نهض وتعثر في البدلة الثقيلة التي لم تعد ضرورية بالكامل. الضغط الجوي هنا أعلى، ودرجة الحرارة تحتمل البقاء دون خوذة لوقت محدود. فحص الجهاز المحمول على معصمه. القراءات كانت مجنونة: نسبة أكسجين أعلى، ضغط مختلف، وإشعاع شمسي أقوى.

— هذا ليس زمننا — قال بصوت أجش. — الشمس أكبر في السماء... الغلاف الجوي أثقل. نحن... في الماضي.

ياسر أمسك حفنة من التراب وفركها بين أصابعه. بقيت آثار خضراء باهتة على القفار.

— حياة. نباتات. على المريخ.

صمتا يحدقان في الأفق. الخطوط المستقيمة كانت أوضح الآن. وبينها وبينهما امتدت أرض متموجة تظهر عليها آثار قنوات ضيقة جافة، كأنها أنهار قديمة أو قنوات ري مهجورة.

هاشم نظر إلى البئر خلفهما. كان لا يزال هناك، لكن الحافة الزرقاء تلمع بقوة أكبر تحت الشمس الجديدة، والرموز المحفورة تبدو أقل تآكلًا... كأنها نُحتت منذ زمن أقرب بكثير.

ياسر همس:

— البوابة... نقلتنا إلى الوقت الذي كانوا فيه لا يزالون هنا.

في الأفق البعيد، فوق أحد المباني المستقيمة، ارتفع فجأة عمود رفيع من دخان أو بخار. ثم آخر. علامات واضحة على نشاط... حياة ذكية لا تزال تتنفس تحت هذه السماء المختلفة.

هاشم شدّ قبضته على ذراع ياسر.

— مهما حدث بعد الآن... نبقى معًا.

ياسر أومأ، وعيناه لا تفارقان الدخان البعيد.

المريخ القديم كان يستيقظ أمامهما. وهم لم يكونوا جاهزين بعد لما ينتظرهما فيه.

****الفصل السابع****

****اللقاء****

الدخان في الأفق لم يكن بعيدًا كما بدا.

بعد مسيرة قصيرة عبر الرمال التي تتخللها بقع النباتات الخضراء، ظهر فجأة. ثلاثة أشكال طويلة تقف على كتيب منخفض أمامهما مباشرة. طول كل واحد يقترب من الثلاثة أمتار، أجسام نحيلة لكن قوية، ورؤوس كبيرة مفلطحة قليلًا من الخلف. العيون كانت واسعة ومستديرة بشكل ملحوظ، تحديق بلا رمش تحت حاجب عظمي خفيف. ملابسهم مصنوعة من نسيج لامع يشبه ما رآياه على المومياة، لكنه سليم ونظيف، بألوان ترابية وزرقاء باهتة.

هاشم توقف فورًا ومد ذراعه ليمنع ياسر من التقدم أكثر. اليد الأخرى ارتفعت تلقائيًا في إشارة سلام عالمية... راحة اليد مفتوحة إلى الأمام.

المريخيون لم يتحركوا في البداية. العيون الواسعة انتقلت من هاشم إلى ياسر ثم إلى البدلتين الفضائيتين اللتين بدتا غريبتين وثقلتين تحت الشمس الجديدة. أحدهم، الأكثر طولًا في الوسط، رفع يدًا ذات أصابع طويلة رفيعة وأشار إشارة مشابهة تقريبًا.

صمت طويل. الرياح الخفيفة حركت أطراف ملابسهم فقط.

ثم جاء الصوت.

لم يكن صوتًا بالمعنى البشري. كان أقرب إلى همس متعدد الطبقات دخل مباشرة إلى رأسيهما، كالأفكار التي سمعتها يوم تفعيل البوابة. كلمات غير مفهومة في البداية، ثم بدأت تتشكل معاني تقريبية داخل الذهن:

«... من السماء... غريب... زمن...؟»

ياسر همس وهو بالكاد يحرك شفتيه:

— إنهم يتواصلون... داخل الرأس.

هاشم أبقى يده مرفوعة وحاول الرد بالطريقة نفسها، مركزًا أفكاره بوضوح:

«نحن من الأرض. من زمن بعيد في المستقبل. البئر... البوابة أحضرتنا.»

المريخي الأوسط مال برأسه الكبير قليلاً. العيون الواسعة ضاقت ثم اتسعت من جديد. الهمس عاد أقوى:

«الأرض... الكوكب الأزرق... نعرفه. راقبناه. أنتم... متأخرون.»

التوتر لم يختفِ. الاثنان الآخران غيّرا موقفهما قليلاً، كأنهما يستعدان للحركة. لكن المريخي الأوسط رفع يده مرة أخرى في إشارة تهدئة واضحة نحو رفيقه، ثم خطى خطوة واحدة إلى الأمام.

هاشم وياسر لم يتراجعا. قلباهما كانا يدقان بقوة داخل الصدرين، لكنهما ثبتا مكانهما.

اللقاء الأول بين جنسين ذكّين من كوكبين مختلفين...

كان يحدث الآن، في صمت الرياح المريخية القديمة، تحت سماء لم تعد فارغة.

****الفصل الثامن****

****المدينة****

المريخيون الثلاثة لم يطلبوا منهما خلع البدلتين. اكتفوا بالإشارة إليهما أن يتبعاهم.

ساروا عبر السهل المتموج نحو الخطوط المستقيمة التي رأوها من بعيد. مع كل خطوة كانت التفاصيل تتضح: ليست جدراناً عشوائية، بل أبنية منخفضة واسعة مبنية من كتل شفافة زرقاء تشبه أحجار البئر تمامًا، مرصوفة بدقة هندسية مذهشة. بعض الأسطح تلمع تحت الشمس كأنها مصقولة منذ ساعات لا منذ قرون.

عند مدخل المستوطنة توقفت مجموعة أكبر من المريخيين. عيون واسعة كثيرة ثبتت عليهما. لا صراخ، لا فوضى، فقط همس جماعي خافت يتردد داخل رأسي هاشم وياسر كأموج متداخلة: دهشة، حذر، فضول، وبعض الانزعاج.

المريخي الطويل الذي بدا قائدًا للمجموعة الأولى أشار لهما بالدخول. الشوارع داخل المستوطنة كانت واسعة ونظيفة، مفروشة بطبقة رقيقة من الرمال المضغوطة. على الجدران الزرقاء نقوش كثيرة: رموز تشبه تلك التي على البئر، لكنها أكثر تعقيدًا وتنوعًا. بعضها يبدو سجلات، وبعضها الآخر يشبه الصلوات أو القوانين.

ياسر همس وهو ينظر حوله:

— يستخدمون المادة نفسها... الماس أو ما يشبهه. كأنها مقدسة لديهم أو عملية جدًا.

هاشم كان يركز على شيء آخر. في ساحة مفتوحة رأيا نصبًا تذكاريًا مرتفعًا: عمودًا من الأحجار الزرقاء محاطًا بحلقات من رموز متكررة. أمامه وقف مريخان طويلان في وضع يشبه الصمت التأملية. المشهد ذكر هاشم فجأة بمعابد قديمة على الأرض، أو بكتب الموتى التي تتحدث عن الخلود والرحلة بعد الموت.

الهمس الجماعي داخل رأسيهما صار أوضح قليلًا بفضل القرب:

«الزوار من الكوكب الأزرق... البوابة فتحت... الزمن انكسر...»

اقتيدوا إلى مبنى مركزي أكبر من البقية. داخله كان الإضاءة ناعمة تأتي من الجدران نفسها. جلس على منصة منخفضة أربعة مريخين أكبر سنًا (ظهر ذلك من لون جلدهم الرمادي الفاتح أكثر ومن بطء حركتهم). القائد الذي رافقهما وقف جانبًا وبدأ «يتحدث» إليهم بالهمس الذهني السريع.

هاشم شعر بالضغط داخل رأسه يزداد. صور متقطعة وصلت إليه: تلسكوبات ضخمة موجهة نحو السماء، نقطة زرقاء صغيرة تت Sabah في الظلام، إشارات راديوية ضعيفة التقطوها منذ زمن طويل... الأرض.

ثم صورة أخرى أوضح: بشر، أشكال قصيرة ذات رؤوس صغيرة، يتحركون على سطح الكوكب الأزرق في مدن بدائية.

أحد المريخين الجالسين مال إلى الأمام. العيون الواسعة ثبتت على هاشم وياسر، والهمس جاء هذه المرة موجهًا مباشرة إليهما:

«نعرفكم. راقبناكم طويلًا. أنتم... النسخة المتأخرة منا.»

في تلك اللحظة أدرك هاشم وياسر معًا أن التشابه لم يكن مصادفة فقط.
الحضارة التي تقف أمامهما كانت مرآة بعيدة...
مرآة تعرف أنها سبقتهم، وتعرف أيضًا أنها قد تكون على وشك الانكسار.

****الفصل التاسع****

****المعرفة المتبادلة****

الهمس داخل القاعة المركزية استمر وقتًا طويلًا قبل أن يتحول إلى حوار واضح.

المريخي الأكبر بين الجالسين — الذي بدا أكثرهم هدوءًا وسلطة — رفع يدًا طويلة وأشار إلى هاشم وياسر بالجلوس على مقعدين منخفضين من المادة الزرقاء نفسها. عندما جلسا، صار التواصل الذهني أكثر تركيزًا وأقل تشويشًا، كأنهما دخلا دائرة مغلقة.

الصوت جاء مرتبًا هذه المرة:

«نعم... نعرف الكوكب الأزرق. منذ مئات الدورات الشمسية ونحن نراقبه. بنينا عيونًا كبيرة في الجبال العليا ترى عبر الفراغ. التقطنا إشارات ضعيفة في وقت لاحق... أصواتًا وصورة مشوشة. عرفنا أن هناك حياة ذكية أخرى قريبة. متأخرة عنا... لكنها موجودة.»

هاشم ركز أفكاره وردّ:

«في زمننا... مريخكم أصبح صحراء. لا هواء كثيف، لا نباتات، لا مدن. فقط رمال وكثبان وبئر واحد وجدناه مع مومياؤ.»

صمت ثقيل ملأ القاعة. العيون الواسعة تبادلت نظرات سريعة. أحد المريخين الأصغر سنًا أصدر همسًا حادًا يشبه الاستنكار أو الألم. الأكبر رفع يده بهدوء وأعاد النظام.

«إذن... ما نخشاه قد حدث. البوابات لم تكن كافية.»

ياسر سأل مباشرة هذه المرة، بصوته البشري العادي ثم بالأفكار:

«ما هي البوابات؟ البئر الذي جئنا منه... لماذا بنيتموه؟»

الجواب جاء مصحوبًا بصور ذهنية واضحة: مريخ يبدأ في الجفاف، غلاف جوي يرقّ تدريجيًا، نقاشات طويلة في قاعات تشبه هذه، ثم قرار يائس ببناء شبكة من الآبار-البوابات. بعضها للذاكرة، بعضها لمحاولة العبور إلى أزمنة أو أماكن أخرى، وبعضها كآخر محاولة لحفظ شيء من الحضارة قبل أن تبتلعها الرمال.

«حاولنا أن نترك أثرًا لا يمحوه الزمن. وحاولنا أن نجد مخرجًا. معظم البوابات ماتت معنا. واحدة فقط بقيت... وفتحتموها أنتم.»

هاشم شعر بثقل الكلمات. روى لهما باختصار ما رآياه في زمنهما: المومياء، الرمال اللانهائية، السماء الأرجوانية الفارغة. المريخيون استمعوا بلا مقاطعة. عندما انتهى، قال الأكبر بصوت ذهني أهدأ:

«أنتم النسخة المتأخرة... وها أنتم تعودون لترونا نهايتنا قبل أن نعيشها. هذا... إما لعنة أو فرصة.»

في خارج القاعة كان ضوء الشمس المريخية يميل نحو الغروب المبكر. الظلال الزرقاء استطالت على الأرضية المصقولة. هاشم وياسر نظرا إلى بعضهما. المعرفة صارت متبادلة الآن:

هم يعرفون أن الأرض موجودة وتراقب.

والأرض، عبرهما، صارت تعرف أن المريخ كان حيًا ذات يوم... ويعرف أنه سيموت.

****الفصل العاشر****

****الشرح في الحضارة****

لم يدم الهدوء طويلًا.

في اليوم التالي لاصطحابهما إلى المدينة، انقسم الهمس الجماعي داخل رؤوسهما إلى نبرات متضاربة. كانا يمشيان مع مرشدهما المعتاد في أحد الشوارع الواسعة عندما توقفت مجموعة من المريخيين أمامهم فجأة. العيون الواسعة كانت تحمل هذه المرة شيئًا مختلفًا: غضبًا مكتومًا ورفضًا.

الهمس جاء حادًا وموجهًا نحو المرشد أكثر مما هو موجه إليهما:

«لماذا أحضرتما الظلّين إلى هنا؟ البوابة يجب أن تُغلق لا أن تُفتح. كل فتحة تسرّع النهاية.»

المرشد ردّ بهدوء، لكن التوتر كان واضحًا في الطريقة التي تبيست بها أصابعه الطويلة:

«هما دليل. دليل على أن الكوكب الأزرق نجح حيث نحن نفشل. ربما نتعلم.»

أحد المعترضين تقدم خطوة. طوله كان أكبر قليلًا، وملامح وجهه أكثر حدة:

«النجاح؟ إنهم جاؤوا من مستقبل أصبح فيه عالمنا رمالًا. هذا ليس أملًا... هذا تأكيد للموت.»

هاشم وياسر تبادلنا نظرة سريعة. لأول مرة شعرا بوضوح أن الحضارة التي تقف أمامهما ليست كتلة واحدة منسجمة. هناك انقسام.

لاحقًا، في القاعة المركزية، كشف الأكبر سنًا جزءًا من الحقيقة. الصور الذهنية تدفقت هذه المرة أسرع وأكثر اضطرابًا: سماء كانت أكثر زرقة في الماضي، بحيرات تجف سنة بعد سنة، خلافات حادة حول كيفية مواجهة الجفاف. فريق يريد بناء المزيد من البوابات والبحث عن عوالم أخرى. فريق ثانٍ يصر على البقاء والتكيف مهما كان الثمن. وفريق ثالث — الأكثر تطرفًا — يؤمن أن الحضارة نفسها هي الخطأ، وأن العودة إلى حالة أكثر بدائية هي الخلاص.

«الشرح بدأ منذ زمن — همس الأكبر. — بعضنا يرى فيكما إنقاذًا محتملًا. وبعضنا يرى فيكما نذيرًا يجب إخفاؤه أو... إزالته.»

في تلك الليلة، بينما كانا في الغرفة المخصصة لهما داخل أحد المباني الزرقاء، سمع هاشم وباسر همسات بعيدة في الشوارع. أصوات ذهنية متداخلة تحمل كلمات مثل «خطر» و«زمن مكسور» و«يجب أن يُغلق».

ياسر قال بصوت منخفض:

— كأننا ننظر في مرآة. هم أيضًا منقسمون. يخافون المستقبل، ويختلفون على الطريقة، وبعضهم مستعد لفعل أي شيء ليفرض رأيه.

هاشم كان يحدق في الجدار الشفاف الذي يطل على المدينة. الأضواء الزرقاء الخافتة كانت تنعكس على وجهه.

— السؤال ليس إن كانوا يشبهوننا. السؤال: هل كل حضارة ذكية... تصل إلى النقطة نفسها؟ الانقسام، الخوف، ثم الانهيار؟

خارج النافذة، فوق أحد النصب التذكارية البعيدة، كان عمود الدخان الذي رآياه أول يوم لا يزال يرتفع... لكنه هذه المرة بدا أكثر سوادًا.

****الفصل الحادي عشر****

****القرار والتمن****

في الليلة الثالثة استدعاهم المجلس كاملاً.

القاعة المركزية كانت أكثر امتلاءً هذه المرة. المريخيون وقفوا في دوائر متداخلة، والهمس الجماعي داخل رأسي هاشم وباسر كان كثيفًا كالضباب. الأكبر سنًا تقدم إلى الوسط، وعيناه الواسعتان ثابتتان عليهما.

«البوابة التي عبرتماها... كانت الأخيرة. بنيناها في أيامنا النهائية كمحاولة يائسة لترك باب مفتوح نحو زمن آخر أو مكان آخر. معظم البوابات ماتت معنا أو أغلقت عمدًا خوفًا من أن تسرع الانهيار. هذه وحدها بقيت... لأن أحدًا لم يعد يعرف كيف يغلقها من الخارج.»

صور ذهنية رافقت الكلام: مهندسون مريخيون طوال القامة يعملون تحت سماء تزداد شحوبًا، خلافاً حادة، ثم قرار أخير بدفن البئر وتركه كأثر أو كفخ زمني.

«الآن فُتحت. وكل لحظة تبقى مفتوحة تقربنا من النهاية التي رأيتها في زمنكما. الرمال، الصمت، المومياء.»

صمت طويل. ثم جاء السؤال المباشر، موجَّهًا إلى الاثنين معًا:

«الخيار لكما. يمكنكما العودة الآن عبر البوابة قبل أن نغلقها إلى الأبد، أو تبقياً هنا... وتحاولا معنا العثور على طريق لم نسلكه بعد. لكن اعلما: إن بقيتما، قد لا تجدان طريقًا للعودة أبدًا. وإن غادرتما، قد نشهد نحن الانهيار الذي جئتما منه.»

ياسر نظر إلى هاشم. في عينيه كان الخوف واضحًا، لكنه كان ممتزجًا بشيء آخر: إحساس بالمسؤولية تجاه حضارة رأيا نهايتها قبل أن تعيشها.

هاشم شعر بوزن البدلة الثقيلة على كتفيه، رغم أنهما خلعا الخوذتين منذ أيام. تذكر الرمال الحمراء في زمنهما، والمومياء الخفيفة كالفلين، والسماء الأرجوانية الفارغة. ثم تذكر الدخان الأسود الذي ارتفع أمس فوق المدينة، والانقسام الذي سمعاه في الشوارع.

قال أخيرًا، بصوته البشري أولاً ثم بالأفكار ليتأكد أن الجميع يسمع:

— نحن لا نملك إجاباتكم. لكننا رأينا ما يحدث إذا لم يتغير شيء. إذا كان بقاؤنا يعطيكم فرصة حتى لو كانت ضئيلة... نبقي.

ياسر أضاف بهدوء:

— معًا.

المريخي الأكبر أغلق عينيه الواسعتين للحظة طويلة. عندما فتحهما من جديد، كان الهمس الجماعي قد انقسم بوضوح: جزء يرحب، وجزء يرفض بشدة، وجزء صامت ينتظر.

خارج القاعة كانت الرياح المريخية القديمة تهب على الأحجار الزرقاء.
والبوابة، في مكان ما تحت الرمال، كانت لا تزال مفتوحة...
لكنها لن تبقى كذلك إلى الأبد.

انتهى الجزء الثاني.

****الفصل الثاني عشر****

****الانقسام يشتعل + الشرارة****

الخبر انتشر في المدينة بسرعة الهمس الذهني.

قبل أن يغرب شمس اليوم التالي لقرار البقاء، كان الانقسام قد شق الشوارع الزرقاء. مجموعات تتجمع في الساحات، وأصوات ذهنية متضاربة تملأ الهواء: بعضها يرى في هاشم وباسر أملاً نادراً، وبعضها يراها كسراً إضافياً في زمن بدأ ينهار أصلاً. في أكثر من زاوية سمعا كلمة «يجب إغلاق البوابة الآن... ومعهم إن لزم الأمر».

المجلس دعا إلى اجتماع طارئ. بينما كانا يسيران مع المرشد نحو القاعة المركزية، توقفت أمامهما امرأتان مريخيتان.

الأولى كانت طويلة كمعظم بني جنسها، لكنها أكثر نحافة ورشاقة. عيناها الواسعتان داكنتان بشكل غير مألوف، وملامحها تحمل هدوءاً عميقاً يشبه الصمت الذي يسبق العاصفة. ارتدت رداءً بسيطاً من النسيج اللامع بلون الرمال المبللة. عرفت نفسها لاحقاً باسم ****سارا****، وكانت واحدة من حارسات البوابة القديمة وعالمة في سجلات الزمن.

الثانية كانت أقصر قليلاً، أكثر حركة، وشعرها (أو ما يشبه الشعر) كان مجدولاً في صفائر قصيرة مزينة بخيوط زرقاء دقيقة. عيناها تلمعان بفضول لا يخفى، وابتسامتها — عندما ظهرت للحظة — كانت غريبة ومشقة في وجه مريخي. اسمها ****ليرا****، من فريق الرصد الفلكي الذي كان يتابع الكوكب الأزرق منذ سنوات.

سارا نظرت إلى هاشم أولاً. النظرة استمرت ثانية أطول مما يجب. في تلك الثانية تسرب همس خفيف غير مقصود إلى رأسه: صورة لسماء زرقاء حقيقية، وشعور بالفضول الممزوج بحذر قديم. هاشم شعر بشيء دافئ وغير متوقع يتحرك في صدره، فصرف عينيه بسرعة.

ليرا، في المقابل، ابتسمت مباشرة لياسر. الهمس الذي وصل إليه كان أوضح وأكثر اندفاعًا: دهشة، اهتمام، وشيء يشبه اللعب. ياسر تجمد للحظة، ثم رد بابتسامة متوترة من تلك التي لا تفارقه حتى في الخطر. ليра مالت برأسها كأنما تقول «رأيتك».

المرشد سعل همسًا ذهنيًا ليعيد النظام، وسارا وليرا انضمتا إلى المجموعة المتجهة نحو القاعة دون كلمة إضافية. لكن المسافة القصيرة التي مشياها معًا كانت كافية.

في القاعة ارتفعت الأصوات الذهنية حادة. فريق يطالب بطرد «ظلي الزمن» فورًا، وفريق آخر يدافع عن بقائهما كفرصة أخيرة. هاشم حاول التركيز على النقاش، لكن عينيه كانت تعود إلى سارا التي تقف في الصف الثاني، هادئة كأنها تستمع إلى شيء أبعد من الكلام. وياسر شعر بنظرة ليرا تثقل على جانبه كلما ارتفع الجدل.

عندما انتهى الاجتماع دون قرار حاسم، خرجا مع المرشد. سارا مرت بجانب هاشم للحظة، وأصابعها الطويلة لامست ظهر يده صدفة... أو ربما ليس صدفة. الدفء الذي انتقل عبر القفاز كان كافيًا لجعله يتوقف نصف خطوة.

ليرا، في الخلف، قالت لياسر بصوت ذهني مباشر وواضح لأول مرة:

«ابتسامتك... غريبة. ومضينة. لا نراها كثيرًا هنا.»

ياسر لم يعرف بماذا يجيب. اكتفى بأن ينظر إليها، والشرارة كانت قد اشتعلت بالفعل...

في قلب انقسام يهدد بأن يحرق المدينة كلها.

****الفصل الثالث عشر****

****المحاولة الأخيرة + الشد والجذب****

العمل بدأ في اليوم التالي مباشرة.

الفريق الذي رحب ببقائهما — وكان من بينهم سارا وليرا — قاد هاشم وياسر إلى قاعة السجلات العميقة تحت المدينة. الجدران الزرقاء هناك كانت مليئة بنقوش أكثر

تعقيدًا: خرائط للغلاف الجوي القديم، حسابات عن فقدان الأكسجين، ومخططات لبوابات لم تُبنَ أبدًا. الهدف كان واضحًا: إيجاد طريقة لتأخير الانهيار ولو بضعة أجيال، أو إعادة تفعيل شبكة البوابات بشكل آمن.

هاشم وجد نفسه يعمل ساعات طويلة إلى جانب سارا. هي كانت تشرح له الرموز بينما تشير بأصابعها الطويلة إلى الخطوط المحفورة. صوتهما الذهني هادئ وعميق، وكان يتوقف أحيانًا ليختار الكلمات بدقة. في إحدى الليالي، بينما كانا وحدهما أمام لوحة كبيرة تمثل السماء كما كانت قبل ألف دورة، قالت فجأة:

«أنت تفكر كثيرًا في الموت... موت عالمنا وموت عالمك. هذا ما يجعل صمتك مألوفًا لي.»

هاشم نظر إليها. العيون الداكنة الواسعة كانت ثابتة عليه.

— وأنتِ؟ — سأل بصوت منخفض. — هل تخافين من النهاية أم من التغيير؟

سارا أدارت وجهها نحو اللوحة.

«الاثنتان. وإذا سمحت لنفسني أن أقترّب من ظلّ زمن آخر... قد أخون واجبي تجاه من سيموتون هنا.»

ثم ابتعدت خطوة. التمتع كان واضحًا، لكنه لم يكن رفضًا كاملاً. في الأيام التالية كانت تعود لتجلس بجانبه، تتحدث أطول، وتترك أصابعها تقترب من يده ثم تنسحب في اللحظة الأخيرة. هاشم كان يشعر بالانجذاب يتزايد، وفي الوقت نفسه يتردد: اختلاف الجسد، اختلاف المصير، والخوف من أن يصبح حبهما عبئًا إضافيًا على حضارة تنهار.

أما ياسر وليرا فكانت المعادلة معكوسة.

ليرا كانت تأتي إليه في فترات الراحة، تسأله عن الأرض، عن الضحك، عن البحر الذي لا يوجد له مثيل على المريخ. كانت تبتسم أكثر مما يفعل معظم بني جنسها، وفي مرة لمست ذراعه عمدًا وقالت داخل رأسه:

«ابتسامتك تجعل المكان أقل ظلامًا. هل هذا ممنوع في زمنكم؟»

ياسر شعر بالحرّج أولاً، ثم بالخوف. تراجع خطوة في المرة الأولى، وفي الثانية ابتسم ثم صرف عينيه بسرعة. كان يفكر في رد فعل المريخين الآخرين، وفي أنه غريب هنا، وفي أن أي علاقة قد تُستخدم ضدهما في الصراع الدائر. لكنه كان يجد نفسه يبحث عنها في القاعة، وابتسم عندما تبتسم، وبهرّب عندما يقترب التلامس أكثر من اللازم.

في إحدى الأمسيات، بعد يوم طويل من العمل الفاشل على معادلات الغلاف الجوي، جلس الأربعة على سطح أحد المباني يراقبون الغروب المريخي. سارا كانت صامتة بجانب هاشم، والمسافة بينهما قصيرة جدًا. ليرا جلست قرب ياسر ومازحته حتى ضحك رغماً عنه، ثم صمتت فجأة ونظرت إلى الأفق.

الشّد والجذب كان يملأ الهواء بينهم الأربعة.

كل واحد يتقدم خطوة ثم يتراجع.

وكل واحد يعرف أن الوقت ليس في صالح العواطف...

ولا في صالح الحضارة التي تحتهم.

****الفصل الرابع عشر****

****الثنى + الاعتراف****

الهجوم جاء في منتصف الليل.

الفريق المتطرف لم يعد يكتفي بالهمس. اقتحموا قاعة السجلات بأدوات قطع وأجهزة تعطيل، هدفهم تدمير الألواح التي تحتوي على معادلات البوابة وإجبار المجلس على إغلاقها فوراً... ومعها الزائرين من الزمن الآخر إن لزم الأمر. الانفجار الأول كان صامتاً؛ موجة ذهنية عنيفة أسقطت نصف الحراس. الثاني حطم جزءاً من الجدار الأزرق وملأ الهواء بغياب لامع.

هاشم دفع سارا خلف عمود سميكة في اللحظة التي مرّ فيها شعاع قاطع فوق رأسهما. ياسر وجد نفسه يجرّ ليرا نحو مخرج جانبي بينما كانت الصرخات الذهنية تملأ المدينة: غضب، خوف، ونداءات للقتال. في الفوضى أصيب مرشداهما القديم، وسقط اثنان من حلفائهما.

عندما هُدد الهجوم مؤقتًا وانسحب المهاجمون نحو الأطراف، كان الثمن واضحًا: دماء مريخة على الأرضية المصقولة، وألواح سجلات محطمة، وثقة مهزوزة أكثر من أي وقت مضى.

في الغرفة الضيقة التي احتموا بها بعد ذلك، كان الصمت أثقل من الغبار. سارا كانت تجلس القرفصاء قرب الحائط، يدها الطويلة تنزف خفيًا من جرح سطحي. هاشم ركع أمامها ولف الجرح بقطعة من نسيجه. عندما رفع عينيه وجدها تحديق فيه بثبات لم تعرفه من قبل.

الهمس جاء منها هذه المرة بلا حواجز:

«كنت أحاول أن أبتعد، لأنك ظلّ زمن يموت، وأنا من زمن يحتضر. لكن عندما رأيت الشعاع يقترب منك... عرفت أنني لم أعد قادرة على التمتع.»

هاشم أمسك يدها السليمة. الدفء الذي انتقل بينهما كان حقيقيًا أكثر من أي تواصل ذهني.

— أنا أيضًا — قال بصوته البشري أولًا. — منذ النظرة الأولى في الشارع. كنت خائفًا أن أكون عبثًا عليك... وعلى شعبك.

سارا لم تسحب يدها. فقط أغلقت عينيها الواسعتين لحظة، ثم فتحتهما وفيهما قبول حذر ومكشوف.

في الزاوية المقابلة كان ياسر يجلس على الأرض، وليرا تتكئ إلى جانبه بعد أن عصبت جرحًا في كتفه. هي لم تنتظر هذه المرة. وضعت جبهتها قرب جبهته وهمست مباشرة داخل رأسه:

«توقف عن الهروب. أنا لا أطلب منك أن تبقى إلى الأبد. أطلب منك أن تعترف بما يحدث الآن.»

ياسر ضحك ضحكة قصيرة مكسورة. كان الخوف لا يزال هناك، والوجل، والشعور بأنه غريب في جسد غريب على كوكب غريب. لكنه نظر إليها وقال بصوت مسموع:

— أنا خائف. من كل شيء. منكم، من النهاية، من أن أحبك في وقت لا يسمح بالحب. لكنني... أحبك.

ليرا ابتسمت ابتسامتها الغريبة المضيئة، ثم أسندت رأسها إلى كتفه السليم.

في الغرفة الضيقة، وسط رائحة الغبار والدماء الخفيفة، كان الأربعة قد عبروا الخط. الحب لم يعد سرًا. والتمن... كان قد بدأ يُدفع بالفعل.

مشهد إضافي (يُدرج في نهاية الفصل الرابع عشر أو كفاصل حميمي قبل الفصل الخامس عشر)

بعد أن هدأ الهجوم وانسحب المتطرفون، وبعد الاعترافات التي خرجت وسط الغبار والدماء الخفيفة، لم يعد أحد منهم قادرًا على النوم.

الغرفة الضيقة التي احتموا بها كانت معزولة نسبيًا عن بقية المدينة. الإضاءة الزرقاء الخافتة القادمة من الجدران كانت تمنح الأجساد ظلالاً طويلة. سارا كانت أول من تحركت. اقتربت من هاشم الذي كان يجلس على الأرض مستندًا إلى الحائط، وركعت أمامه. عيناها الواسعتان الداكنتان تحدقان فيه بتردد واضح.

«جسدانا مختلفان... جلدك دافئ أكثر، وأصابعك أقصر. لا أعرف إن كان هذا مسموحًا أو حتى ممكنًا.»

هاشم رفع يده ولمس خدها ببطء. هي ارتجفت، لكنها لم تتبعد. عندما قبلها لأول مرة كان فمها باردًا قليلًا وطعمها غريبًا كالمعادن الخفيفة، ثم صار دافئًا. القُبلة بدأت مترددة، شفاه تلامس شفاهًا بحذر، ثم ازدادت عمقًا عندما أدخل لسانه ووجدت هي طريقة للرد بالسنتها الأطول قليلًا والأكثر مرونة.

في الزاوية الأخرى كانت ليра قد صعدت على ركبتَي ياسر دون استئذان. كانت تبتسم تلك الابتسامة المضيئة المترددة، لكنها كانت ترتجف أيضًا.

«أريد أن ألمس... كل شيء. لكنني خائفة أن أؤذيك أو أن ترفضني بعد أن تراني.»

ياسر لم يتكلم. جذبها إليه وقبلها بقوة أكبر مما فعل هاشم. ليرا أصدرت صوتًا ذهنيًا حادًا ممزوجًا بالمتعة والمفاجأة عندما شعرت بلسانه، ثم ردت بشراسة ناعمة، أسنانها تلامس شفته السفلى دون أن تجرح.

الملابس انخلعت ببطء وبتردد. سارا سمحت لهاشم أن يفتح رداءها اللامع، فظهر جسدها الطويل النحيل: بشرة رمادية-وردية ناعمة كالحرير البارد في البداية، ثم تدفئ تحت يديه. ثدياها صغيران مشدودان، والحلمات داكنة ومستجيبة بشكل مدهش لكل لمسة. عندما لمسها بين فخذيه وجد فتحة دافئة ورطبة بشكل غير متوقع، طيات أكثر تعقيدًا من الجسد البشري، لكنها تستجيب للأصابع واللسان بنفس الجوع.

هاشم دخلها ببطء شديد. سارا أغلقت عينيها وأصدرت همسًا ذهنيًا طويلًا من الألم واللذة المختلطين. كان ضيقًا جدًّا في البداية، ثم تكيّف جسدها حوله، عضلات داخلية تتحرك بطريقة حلزونية ناعمة تجعله يئن من عمق الإحساس. هي تحركت فوقه بعد ذلك، طويلة جدًّا حتى كادت ركبها تلامس الأرض من الجانبين، وأدارت وركها بطريقة جعلته يفقد القدرة على التفكير.

في الجهة المقابلة كانت ليرا أكثر شجاعة. خلعت ملابس ياسر بنفسها، وأجبرته على الاستلقاء، ثم جلست فوق وجهه أولًا. رائحتها كانت حادة وحلوة كالتراب المبلل بعد مطر نادر. ياسر لعقها بشراهة بينما هي ترتجف وتضغط على رأسه بيديها الطويلتين. عندما نزلت عليه وأخذته داخلها بالكامل، صرخت ذهنيًا بقوة سمعتها الغرفة كلها. كانت أشد حرارة من سارا، وحركتها أسرع وأكثر شراسة، كأنها تريد أن تبتلعه بالكامل.

الأربعة صاروا قريبين جدًّا. في لحظة ما تلامست يد سارا مع يد ليرا، ثم تبادلنا نظرة طويلة قيل أن تقبّل إحداهما الأخرى ببطء تجريبي. الرجال شاهدا ذلك، وازدادت ضربات قلوبهما. هاشم سحب سارا إليه بقوة أكبر، وياسر رفع ليرا ثم أنزلها عليه مرارًا حتى صارت أصواتها الذهنية متداخلة مع أثنينما البشري.

التردد تحول إلى جوع. العرق (أو ما يشبهه لدى المريخيات) بلّل الأجساد. الأعضاء الصلبة تتفتح الغربية المستجيبة، الألسنة تتجول على الحلمات والأعناق والفخدين، والأصابع الطويلة المريخية تدخل أماكن لم يتخيلها الرجلان من قبل. سارا بكت همسًا عندما وصلت إلى ذروتها الأولى، جسدها ينقبض حول هاشم بقوة كادت تؤلمه. ليرا صرخت داخليًا وعصّت كتف ياسر عندما جاءها الإشباع، ثم استمرت في الحركة حتى أخرجه منها وطلبت منه أن ينهي على بطنها وصدرها.

بعدها استلقوا الأربعة في كومة متعبة من الأطراف البشرية والمريخية المتشابكة. الأنفاس مختلطة، والهمس الذهني صار دافئًا وراضيًا ومرتبكًا في آن واحد.

سارا لمست صدر هاشم وقالت بصوت خافت داخل رأسه:

«هذا... لم يكن في أي حساباتنا. لكنه حدث.»

ليرا ضحكت بهدوء وهي تعلق أثرًا من على شفة ياسر:

«والآن... صار جزءًا من القصة.»

خارج الغرفة كانت المدينة لا تزال تتألم من الانقسام.
لكن داخلها، ولساعات قليلة قبل أن يعود الواقع ليطالب بثمنه...
كان الجسدان المختلفان والعالمان المختلفان قد وجدوا طريقة ليصبحا واحدًا.

****الفصل الخامس عشر****

****البوابة تغلق أو تنفتح****

الفجر جاء أحمر هذه المرة.

المجلس انعقد للمرة الأخيرة عند البئر نفسه. الأحجار الزرقاء كانت تتوهج بشكل غير مستقر، والرموز المحفورة تنبض كأنها تعدّ تنازليًا. التقارير واضحة: كل ساعة إضافية تبقى فيها البوابة مفتوحة تسرّع فقدان الغلاف الجوي المتبقي. الفريق المتطرف هدد بعودة أعنف. والوقت نفذ.

الأكبر سنًا وقف على حافة البئر ونظر إلى هاشم وياسر وسارا وليرا الذين جاؤوا معًا.

«الخيار لم يعد لنا وحدنا. البوابة إما تُغلق الآن وإلى الأبد... أو تُستخدم مرة أخيرة. إن أغلقت، يبقى من أراد البقاء هنا مع نهايتنا. إن فُتحت للعودة، يمكن لمن يشاء أن يعبر إلى زمنكم... بما في ذلك من أحبكم.»

الصمت كان أثقل من الرمال.

سارا أمسكت يد هاشم. أصابعها الطويلة ارتجفت للمرة الأولى منذ عرفها.

«إذا بقيتُ معك في زمنك... أترك شعبي في لحظته الأخيرة. وإذا بقيتُ هنا... أتركك.»

هاشم ضغط على يدها.

— أنا لن أطلب منك أن تتركيه. لكنني أيضًا لن أتركك إن اخترت المجيء.

ليرا كانت أكثر حدة. نظرت إلى ياسر وقالت بصوت ذهني واضح يسمعه الجميع:

«أنا أذهب. ليس لأن عالمكم أفضل... بل لأنك فيه. وإذا متّ هنا مع الباقين فسأموت وأنا أعرف أنني هربت من الشيء الوحيد الحقيقي الذي وجدته.»

ياسر لم يتنسم هذه المرة. أمسك وجهها بين يديه — يدها قصيرتان مقارنة بها — وقال:

— إذن نذهب معًا. أو نبقى معًا. لا خيار ثالث.

النقاش حولهما انفجر من جديد. بعض المريخيين صرخوا ذهنيًا ضد رحيل أي من بنات جنسهم مع «ظلي الزمن». وآخرون رأوا في الأمر بذرة أمل صغيرة تُحفظ في كوكب آخر. الأكبر سنًا رفع يده أخيرًا وأصدر القرار:

«البوابة ستُفتح مرة واحدة فقط. من يعبر... يعبر الآن. بعدها نغلقها بأيدينا حتى لو متنا ونحن نفعل ذلك.»

الضوء الأزرق انفجر من البئر أقوى من أي مرة سابقة. السلم غير المرئي تشكل من جديد. هاشم نظر إلى سارا. هي نظرت إلى مدينتها للمرة الأخيرة، ثم إلى عينيه، ثم خطت الخطوة الأولى معه.

ليرا سحبت ياسر خلفهما دون تردد.

خلفهم كان المريخيون يقفون في صفوف صامتة. بعضهم يرفع يداً في وداع، وبعضهم يدير ظهره. الأكبر سنًا همس للمرة الأخيرة وهو يراقبهم يختفون في الضوء:

«احملوا معنا شيئاً... غير الذكرى.»

ثم بدأت البوابة تنغلق.

والسماء المريخية القديمة فوق الرمال الحمراء... بقيت وحيدة من جديد.

****الفصل السادس عشر****

****ما بعد الصمت****

الضوء الأزرق انسحب كالمدّ.

عندما فتحوا أعينهم كانوا يقفون على الرمال الحمراء نفسها... لكن السماء فوقهم كانت أرجوانية داكنة من جديد، والشمس صغيرة وبعيدة. البدلات الثقيلة التي كانوا قد خلعوها في الماضي ظهرت حول أجسادهم فجأة، والخوذات مغلقة. الأجهزة على معاصمهم عادت للعمل: القراءات تطابق مريخ المستقبل الذي عرفوه. البئر خلفهم كان باهتًا، أحجاره الزرقاء خافتة الإضاءة كأنها أفرغت من قوتها.

سارا كانت أول من خلعت الخوذة. الهواء الرقيق لسع رئتيها، لكنها تنفست. نظرت إلى الأفق الفارغ، إلى الكثبان اللانهائية، إلى الصمت الذي لم يعد فيه همس جماعي ولا دخان يعلو من مدينة.

— هذا هو عالمنا بعد النهاية — همست.

هاشم وضع يده على كتفها. لم يقل شيئًا. هو أيضًا كان يرى ما رآته.

ليرا جلست على الرمل، تجمع حفنة منه وتدعها تنساب من بين أصابعها الطويلة. ياسر ركع بجانبها. ابتسامتها المضئئة لم تعد موجودة، لكن عينيها الواسعتين كانتا هادئتين بطريقة جديدة.

— لقد أغلقوها — قالت. — ونحن هنا.

السفينة كانت لا تزال في مكانها على البعد، كما تركوها. عندما وصلوا إليها وجدوا رسالة مسجلة من مركز المتابعة على الأرض، تعود إلى اليوم الذي اختفوا فيه: استفسارات متكررة، ثم صمت طويل، ثم تعليمات بالعودة إن أمكن.

هاشم سجل الرد بنفسه. صوته كان هادئًا وواضحًا:

«عدنا. معنا اثنتان من سكان المريخ القديم. الحضارة هناك انتهت... لكن شيئًا منها بقي. سنشرح كل شيء عند الوصول.»

في الليلة الأولى على متن السفينة، قبل الإقلاع نحو الأرض، جلس الأربعة في غرفة المراقبة ينظرون إلى الكوكب الأحمر وهو يبتعد. سارا أسندت رأسها إلى كتف هاشم. ليرا أمسكت يد ياسر ولم تتركها.

هاشم قال وهو يحدق في النقطة الحمراء المتناقصة:

— التطور المتوازي... عين الأخطبوط. كنا نظنها مجرد صدفة بيولوجية. ربما كانت تحذيرًا. كل حضارة ذكية تصل إلى الحافة نفسها. بعضها يسقط... وبعضها يجد يدًا تمسك بها في اللحظة الأخيرة.

سارا همست، وصوتها الذهني صار الآن مألوفًا داخل رأسه كجزء منه:

«اليد التي أمسكت بنا... كانت حبًا. غريبًا، ومستحيلًا، وفي الوقت الخطأ. لكنه كان حقيقيًا.»

ياسر ابتسم ابتسامته القديمة أخيرًا، ونظر إلى ليرا.

— وهل يكفي؟

ليرا أجابت وهي تراقب المريخ يختفي تمامًا في السواد:

«لا نعرف بعد. لكننا سنكتشف... معًا.»

السفينة تسارعت نحو الأرض.

خلفهم بقي كوكب أحمر صامت يحمل بئرًا مغلقًا وربما لا تنتهي.

وأمامهم كانت سماء جديدة، وكوكب أزرق، وقصة لم تُكتب بعد عن أربعة كائنات...
من عالمين مختلفين، اختاروا أن يكسروا الدورة معًا.

انتهى.